محمد إسماعيل

قصص قصيرة

* جنازة الشيخ أيوب
* قصة حَي
* أغنية عشق ونصف رجل



....

جنازة الشيخ أيوب

الشجرة الطيبة تثمر ثمرة طيبة, فكيف تريد أن تجني ثمرة طيبة من أسلوبك الخبيث!

الساعة الثامنة مساءا..يجلس بعض الأصدقاء من رجال القرية علي مقهي عوضين البسيطة المبنية بالطوب اللبن يتكلمون ويتناحرون وتعلوا الصيحات بينهم اعتراضا علي طريقة اللعب, فالترفيه الوحيد بالنسبة لهم هو لعب الدومينو والطاولة وتدخين الشيشة ليلا علي المقهي..يزمجر صوت ميكروفون المسجد الكبير, ينصت الكل حين علموا عن طريق التخمين بأن بيانا ما سيذاع أو خبرا علي لسان مؤذن المسجد..

قال أحمد ابو ياسين متشائما : هو ابوهلال بوز الفقر جايب خبر زي وشه أكيد!

يرد السعيد الناغي: غنت عارف يابو ياسين ان المسجد هو نشرة أخبار القرية, ربما خيرا ويكون الموضوع ان دكر بط ضايع, انت عارف يوم ما انفصلت بنت حسين اخويا عن جوزها... انا خفت لا يقول الكلام دا بالجامع !!

يضحك الجميع بصخب وقت أن هدأ الميكروفون عن التشويش ليذيع ابوهلال المؤذن خبر وفاة الشيخ أيوب والدفنة عقب صلاة الجمعة غدا بالمسجد وسبحان الحي الذي لا يموت ..

حالة من الحزن والدهشة تجتاح المكان وتخنقه بالصمت الرهيب بعد صخب, يتمتم ويغمغم الجميع حزنا علي الشيخ أيوب, يصفقون علي أيديهم متعجبين بأنه كان سليما مثل الحصان, ويمصمص البعض شفاه كتعبير عن قمة الأسي..ينتفض الجميع من أماكنهم تأهبا للذهاب إلي بيت الشيخ أيوب ويعم المقهي فراغ مفاجيء جعل عوضين صاحب المقهي يسب ويلعن الموت وسنينه !

عند بيت الشيخ أيوب تجمعات من الفلاحين رجالا ونساءا,فكعادتهم لابد من مواساة أهل الميت والوقوف معهم والعرض لأي من الخدمات المحتمل تقديمها حتي ولو كان بكاءا وحزنا, أصوات النحيب والصراخ من الداخل جعل الشيخ علي يشق الجموع متجها للداخل,وقف الشيخ علي إبن شقيق الفقيد وقال بحزم وصلابة قاطبا حاجبيه: أي مره هاتصرخ هاعطيها بالجزمه...

لم تنجح تلك الطريقة منه أن تسكت الست بدرية قريبة زوجة الشيخ أيوب وهي رئيسة أنفار معروفة بالقرية, تمردت بتعليقها وسط سكوت النساء وهي تسب وتلعن الشيوخ, كانت لا تحبهم وتقول حين تقابل أي شيخ ملتحي في الصباح : أنا اصطبحت بدقنك يبقي يوم اسود!

في سخرية لاذعة متطرفة كعادتها, حاول بعض النسوة إسكاتها متعللين بهيبة الموت واحترام الميت خصوصا لو كان الشيخ أيوب ..

إمرأة صلبة كجذع شجرة رغم تقدمها في العمر, وقد سبق لها الزواج ثلاث مرات يموت أحدهم تلو الآخر حتي رفض كل من يحب الحياة ويخشي الموت أن يتزوجها..تدخل الشيخ شكري محاولا التهدئة ببعض الكلمات بهدوء ورصانة بعد أن زغد الشيخ علي بأصبعه في جانبه كادت أن تنفذ لكليته..

: إهدأ قليلا ياأخ علي ..قم التفت للنساء والرجال وقال أعتذر ياجماعه عن أسلوب الشيخ علي فهو لا يدرك تصرفاته من شدة حزنه علي عمه ..وهنا ردت الست بدرية وقالت: ونحن لا نُدرج ياخويا..

لم يستطع بعض الواقفين أن يخفي أثر الرد المضحك منها، حاول بعضهم التماسك, فوضي عارمة, قال الشيخ شكري وقد فقد بعضا من هدوئه مع تصنعه الواضح به:

سعيكم مشكور ياجماعه..الدفنه غدا بعد الصلاه ولا داعي للتجمعات الآن...

وفي الغد بعد الصلاة تجمع الكل لاتباع الجنازة بعد خطبة عن الموت مؤثرة..

خرجت الجنازة من المسجد ويتبعها الناس وهم يقولون لا إله إلا الله..وحدووووه...

همس أبوياسين في أذن سالم الذي دفعه الزحام ليكون بجانبه بلا ترتيب وقال :

تعرف ياد ياسالم ان الشيخ أيوب من أهل الجنة!!

رد سالم وقال: طبعا دا شيخنا لو مادخل الجنة هو ستدخل أنت يعني؟!

رد أبو ياسين وقال: ياد يااهبل..النعش بيجري بسرعة واحنا مقطوع نفسنا وراه لأن الملايكه هي اللي شايلاه..

كان سالم بسيط الفهم ولذلك اشرأب بعنقه ليري من خلف أقفية الناس من يحمل النعش, ثم التفت لابو ياسين وقال : ياعم ملايكة مين اللي حاملين النعش؟

دا الشيخ علي اللي كان طوال النهار أمام الثانويه بنات يعاكس في البنات قبل مايربي دقنه, والشيخ شكري, والواد ابن ستوته الاهبل وواحد كمان مش لا أعرفه..

وهنا كان رد أحمد ابوياسين أن ضرب سالم علي قفاه لأنه مغفل لا يفهم مقصده..كان عوضين خلفهم ويسمعهم فانفجر بالضحك بشكل لا إرادي حتي التفت الناس له, وتمعض وجه البعض منه مما جعله يقف جانبا حتي يتمالك نفسه من الضحك ..

في المقابر..

سبق أبو الليل الجنازة ووقف منتظرا عند القبر الذي علم به من مصادره الخاصة أن الشيخ أيوب سيدفن فيه.. وفور دخول الجنازة جلس أبو الليل يقرأ وهو يهز رأسه ويتمايل يمينا وشمالا بجذعه : يس..والقرآن الحكيم..إنك لمن المرسلين..علي صراط مستقيم...

وإذا بصوت الشيخ علي كمنذر جيش يقول له: لا تقرأ القرآن يامبتدع هذه بدعة ياجاهل..

في ذلك الوقت لم يستطع أبو الليل أن يسكت علي تلك الإهانة والمحاربة للقمة عيشه أمام الناس, قد كان في نفسه شيء عليهم بسبب ذلك الفكر المحارب لطبيعة عملهم سبب رزقهم !..أخذت الأصوات تتعالي وعادت الفوضي مجددا لتلقي نظرة علي الجنازة بدورها..

تدخل الشيخ حسين وشتم أبو الليل لتهكماته علي الشيخ علي , بينما الشيخ شكري يحاول تهدئة الوضع ببعض الحكمة, لكن تبادل الشتائم بين أبو الليل والشيخ علي والشيخ حسين أعطي للفوضي الحق في إدارة الموقف خصوصا حين لطم الشيخ علي وجه أبو الليل والناس ينظرون, جري أبو الليل خطوات إلي نهاية الشارع حافياً ووقف يسب الشيوخ والجنازة بهستيرية لا إرادية..حتي أنه سب الشيخ أيوب الذي كان يقرأ عليه منذ دقائق سورة يس..

قصة حَى

<u>أيظن هؤلاء أنهم يطربونا بآلاتهم, ويريدون منا أن نتراقص على ألحانهم!</u>

<u>تبا لهم..ماأحط جوارهم إذ يسمعوننا الرعد فى آذاننا ..</u>

أصوات الناس بالخارج تقلقني كالعادة من نومي..ضوء يتسلل من فتحات الشباك لتضيء الحجرة مداعبة عيناي, مع صوت حركات أمي ذهابا وإيابا بالشقة , أزعجني سقوط أطباق علي الأرض مع صوت خرير الماء وهنا علمت بأن النوم ذهب بلا رجعة..قررت أن أنتفض من علي سريري واقفا..صوت امي من الصالة تنادي : قم يابني هات الفطار..

اممم حكاية كل يوم !!

في صباح كل يوم يتحول شارعنا لسوق كبير, الناس تتوافد من كل اتجاه علي هذا الشارع حيث طابونة العيش ومحل صفيه صاحبة الطريقة السحرية لعمل الفلافل..

شارعنا بين قوسين كبيرين, الفرن هناك ببداية الشارع يشكل قوسا, ومحل صفية بنهاية الشارع يشكل قوسا آخر, وبينهما عربات الكارو والباعة الجائلين بأصواتهم العالية التي تضاهي نهيق حميرهم..

وما يزيد الطين بلة هو عمي رمضان الذي يبدأ كل يوم صباحا ممارسة رياضته المفضلة ألا وهي الشجار مع الباعة الجائلين, طبعا هي حكاية مكررة لا أثر لها غير وجع الدماغ فقط, هنالك علي الناصية الشاب خالد الشاعر الذي يقف ليرصد مايكتبه في أبياته الشعرية, حبذا لو أطلت سمية عليه في صباحه سيكتب شعرا رومانسيا ..

إنها تلهمه بنظراتها التي تهبط عليه كإلهام لا نهاية له..تتدفق في رأسه الكلمات كما يتدفق الخطاب علي سمية وترفضهم لأجل خالد, لكن خالد اكتفي بأن تكون خطيبة قلمه فحسب..

يكتفي بما يحققه من زواجه بقصائدة التي تنجب له الجوائز في مسابقات يسعي لها كغاية وجوده بتلك الحياة..

صوت أمي وأبي يتسرب للخارج كصباح كل يوم برتابة المواضيع وتكرارها الممل بالنسبة له, طلبات وطلبات تجعله يخرج للعمل يدب برجله السلم المتهدم ببيتنا القديم..

: قومي يابنت هاتي راسين قلقاس من علي العربة وأحسني انتقائهم للغداء.

تقول أختي : لا..لا أحب القلقاس..تصيح أمي بوجهها ..لاشيء آخر بلا دلع ماسخ..القلقاس مفيد جدا ياجاهله..

تدب أختي بقدمها السلم بدورها..يالها من فوضي سيسقط السلم بنا ذات يوم متمردا كتمرد أختي علي القلقاس..

ساعة قضيتها في طابور العيش ..زحام علي الشباك كمعركة راح ضحيتها قميصي الذي فقد زرا بظروف حرجة, حصلت علي عشرة أرغفة بشق الأنفس واتجهت لمحل صفية..القصعة تلو القصعة والناس تمتد أيديهم لضمان حصتهم من الطعمية في كل دور..كنت متأخرا وحصلت علي قرطاس الطعمية أخيرا مع كيس الفول المقدس..يقولون مدمس..لا أدري هل حرفت الكلمة بكثرة الاستخدام أم ماذا..مدمس مقدس كإكسير للحياة لا غني عنه..

مشاجرة كل يوم بين الشاويش صاحب دكان الانابيب المقابل لمحل صفية واولادها..رجل مسن رائحته رائحة الغاز كما لو كان وابور غاز متنقل يوشك اشتعاله بأي لحظة..رائحة الغاز تتسرب في الحي كله بلا أدني شعور بالخطر منه وهذا سبب المشاجرة معه كل يوم, يقع الشاويش علي الأرض متمرغا كالثكلي وهو يئن متعللا بضعفه وأنه لا عمل له آخر..يتعاطف البعض معه ..يفضون المشاجرة باكتفائهم بقولهم : إنتبه ياشاويش أن تحدث كارثة ..اللهم إلا شخصا واحدا يتمني لو أن ينفجر محل صفية بدكانة الشاويش وهو صاحب محل فلافل آخر بوسط الشارع زبائنه قلائل بسبب وجود محل صفيه.. وفجأة تمر عفاف.. راقصة تسكن الحي.. ببنطالها الضيق ..بحدود سروالها الداخلي الشبيهة بحدود وطننا العربي, وبلوزة ترتديها يهتز تحتها نهديها المندفعين كمسدس, وعلي بطنها فتحة دائرية صغيرة محددة تحت البلوزة كثقب أسود يتمني الناظرون أن يبتلعهم للأبد..تلتفت إليها النظرات عن الشاويش ومشكلته وهي تطلب الفول من صفية لتجد ثلاثة ممن كانوا متعجلين يمدون لها أيديهم بالفول الذي بأيديهم يقولون لها : هو زائد علينا ولن نفطر اليوم..

ونظرات عابرة لرؤوس الجمع من الحاج رمضان إليهم وهو يسبها ويسبهم ويقول: يلعن أبو دي منطقه.

...

أغنية عشق ونصف رجل

إنها ليست أزرار نضغط عليها لاختيار حياتنا التي نرضاها, بل هي مغامرة وجهاد كي نعيش حياة أفضل, والعاقل من يختار لنفسه حياة تناسبه هو لا حياة تناسب القيل والقال, فكل منا أعلم بتجربته ومايناسبها.

في ليالي الصيف الهادئة تكثر الأعراس..لا يمر يوم ولا يومان حتي يتم زواج أحدهما علي إحداهن..وفي قرية أم جابر الليلة عرس طال انتظاره بين جارها وجارتها..تم تأجيل الزفاف مرتان..مرة لما مات خال العروسة..وأخري لما مات عم العريس..حتي قال الناس بأنها جوازه فقر..

والليلة زفافهما أخيرا بعد عناء وسوء حظ, الأطفال يلعبون بمحيط الحفلة ويتراشقون بالحجارة وملاحقة الشباب والنساء لهم بصيحاتهن التي طغت علي المزيكا..أم جابر واقفة تشاهد العرس لكنها في واد غير الوادي, تتسلل أغنية العشق والليل لأذنيها لتشعر بألم طالما زارها..ألم بروحها ونفسها لا ألما بأذنيها..تتذكر زوجها سعيد الذي اختفي بلا حس ولا خبر مذ سافر إلي ليبيا من ثلاث سنوات وقت اندلاع الحروب القبلية بها..تقف بجسدها بالحفل وهي بروحها في جحيم مستعر حين تنعي حظها الهباب وبختها الطين..تذهب مخيلتها بعيدا تتفقد القتلي والموتي وتنبش القبور وتقلب صفحات وقوائم المستشفيات وأقسام البوليس علها تعرف عن سعيد شيئا..طيلة سنوات تتظاهر بالصبر لكنها غير ذلك ولا تعرف ماعساها أن تفعله!!

فلا هي أرملة في كشوف الأرامل ولا مطلقة ولا حتي متزوجة!

تبلغ من العمر خمسة وثلاثين ربيعا مزهرا ولديها ولد وبنت دون العاشرة..

كثيرا ماتواسيها أمها : إصبري يابنتي لعل الغايب حجته معه..سيعود ويعوضك خيرا..إصبري وإياك ان تفعلي شيئا يضر بسمعتك وسمعة أبيك في قبره..كان يحبك كثيرا ويدعوا لك..

تستمع وتهز رأسها ككل مرة بلا جدوي..تنتهي الأم بأن ترفع بصرها للسماء وتقول : ياتري انت فين ياسعيد..ربنا يرجعك بالسلامه!

كانت تلك الكلمات تكرارا موجهة إليها من أمها بسبب أن الشيخ خطاب قال لها بأن تعتد بأربع سنين ثم أربعة أشهر وعشرا ولها أن تتزوج وهذا شرع الله, لكن الأم قامت بتوبيخه علي هذا الكلام مانعة ابنتها من الكلام معه..وتقول لها : الشيخ خطاب تزوج ثلاث مرات وهو رجل مزواج لا عهد له لا تسمعي منه, المرأة لزوجها ولو مات تربي اولادها..

تذكري سهير التي وضعت راس أبوها بالطين بعملتها السودا لما مات أبوعيالها..تذكري لما تزوجت نفيسه بعد موت زوجها كيف كرهها اولادها وتركوها ..

وتذكري........

في الليل تحيط الجدران الاربعة بها وهي بجانب أطفالها علي السرير تفكر في سعيد..هل تزوج وتركني ..هل مات..هل قتله أحد..هل سيعود بعد غياب ليطرق الباب فجأة الآن لأقول من بالباب؟..فيقول أنا سعيد افتحي يام جابر...تتخيل..تتنهد..تتألم..تلتفت لأطفالها النائمين في براءة.. تسمع خبطا بالجدار..تنتبه له فتعرف أنه فرس الجيران بالجوار..تخيلت ..تبكي بحرقة..ثم تنام متعبة ككل مرة..

في الصباح تستيقظ لتودع أطفالها لأمها المسنة وتذهب للعمل في الحقول, فقيرة تتكسب ماتنفقه علي نفسها وامها وعيالها,أغنيات تبعث الحماسة في نفوس الشغيلة بالحقول تفرج عنها شيئا قليلا وتنسي همومها بما يشغلها من عمل مؤقت, كان فرج هو انداهم صوتا وهو فاكهة الفريق , به يتندرون وعليه يقضون أوقاتهم ويسمعون منه حكاية مضحكة أو تصرفا أو يغني لهم أغنية تسليهم في وقت العمل..

الجميع يعرف قصة أم جابر ويعطفون عليها ..التعاطف فقط هو كل مايقدرون عليه بلا تفكير في أي حلول لحيواتهم تلك!..هذه عادة بسطاء الناس وفقرائهم..تسوقهم العواطف ..

يزول المؤثر والمثير بزوال الوقت ليستبد بها وقت آخر تكون فيه وحيدة بلا تأثير خارجي وتبقي أسيرة وحدة مستبدة , وغربة نفسية ,وخواء وفراغ روحي قاتل, لا يدرك حقيقته إلا صاحب التجربة, أما من هو علي الشاطيء فهو لا يعرف معاناة غريق يعاني خروج روحه وقت أن يُحفر له قبرا في محيط وجوده..!

يأتي الليل..

وفي الليل عرس جديد..تتجمع النساء والأطفال طلبا للبهجة..أم جابر بظاهرها موجودة لكنها مسافرة بروحها في غابات كثيفة مظلمة..مع الوقت نام أطفالها في حجرها وحجر أمها فيتكرر المشهد..حملت طفلتها ولم تستطع الام المسنة حمل الطفل..جاء فرج ليحمل الطفل ويوصلها للبيت ..تدخل حجرتها وتضع طفلتها علي السرير وخلفها فرج يحمل الطفل وهي تقول له: تعالي يافرج ضع جابر هنا علي السرير..تفكر !!...منذ ثلاث سنوات لم يدخل الحجرة رجل..وفرج معروف بالقرية أنه نصف رجل كما كانوا يصفونه ..ربما لبلاهته وسفاهته وربما لشيء آخر..

شيئا ما غريبا يتسرب كالحريق بداخل عروق أم جابر..شبه رعشة وحرارة مرتفعة..رطوبة ما بين رجليها شعرت بها كعادتها الشهرية..تنفسها غير منتظم..أشياء في مخيلتها جعلتها

فجأة تدفع فرج خارج الباب متصنعة شُكرَه علي خدماته وتسرع لتغلق الباب خلفه, ثم تلصق ظهرها بالباب وهي تبكي وتقول : منك لله ياسعيد..منك لله ياسعيد.. حتي تشعر بالتعب وتذهب لحجرتها لتستلقي بجوار أطفالها وتنام كميت..

لا زالت أم جابر تتذكر كلمات الأم التي تقويها تارة حال ضعفها, وتضعفها تارة حال قوتها, والفرق في الحالتين هو الفرق بين سيطرة العقل وسيطرة المشاعر علي الإنسان..

تدور الأيام والليالي وتصبح أم جابر فيما تمسي فيه وتمسي بما أصبحت به في رتابة الحياة ومللها, وما كانت تترفه به من ليالي الزفاف القروية صار مادة لتقليب المواجع واصبحت الجدران من حولها كل ليلة تنزف دما, والموت النفسي والروحي يتسرب من زوايا حجرتها حتي ينام جسدها علي السرير كعفن تحت التراب في قبر ميت منذ عدة ليال..حمل فرج الطفل مجددا حين تكرر المشهد في ليلة قمرية وتبع المرأة لبيتها ليضع الطفل بجانب أخته علي السرير بينما الفرس الهائج في الجوار يضرب الجدران من الخلف بقوة..الكآبة بدأت تتساقط مع تساقط كل قطعة من الثياب,وحرارات تدفيء برد النفوس الخاوية كماء يشبع ويروي ظمآنا في صحراء قاحلة !

الأم نائمة لها غطيط بحجرة بنهاية الدار مغلقة عليها من الخارج, والفرس بالجوار كان جائعا يركل الجدران بقدمه حتي هدأ فجأة..إنتبهت المرأة التعيسة لما فعلت وتساءلت في نفسها ماذا جري ؟!

صاحت وبكت وهاجت وجثت علي ركبتيها وهي تلطم خدها وتقول: منك لله ياسعيد!

..

القصص من مجموعة قصصية صدرت عام 2018 بعنوان ..مشاعر شتاء..عن المكتبة العربية للنشر والتوزيع بمجموع ست عشرة قصة..

برقم إيداع/2018/16578

المجموعة كاملة ورقيا بمكتبات جمهورية مصر العربية حسب خريطة توزيع الدار وقد شاركت المجموعة بمعارض داخلية وخارجية..وقد تحدثت عنها في لقاء تلفزيوني علي قناة النيل الثقافية ..وتتواجد المجموعة إلكترونيا علي موقع العبيكان وموقع نيل وفرات ..وليست المجموعة هي عملي الوحيد بل لي روايات مطبوعة وقيد النشر وقصص ونصوص أخري..